إشكالية الزمن والحدث عند ميشيل فوكو

أ. د. عصام محمد عبد الفتاح (ضيف شرف المؤتمر)
أستاذ اللغويات وفلسفة اللغة بقسم اللغة الفرنسية
كلية الآداب - جامعة حلوان

يدور هذا البحث حول قضية جوهرية ذات صلة وطيدة بالمفهوم الفلسفي للزمن. كان الفيلسوف الفرنسي **برجسون** يفرق بين نوعين مختلفين من الزمن: **الزمن الموضوعي** الذي يخضع للقياس العلمي **والزمن الذاتي أو الديمومة**. وفكرة الديمومة ترتبط ارتباطا وثيقا بالوعي الإنساني من حيث انطباع الزمن في تيار الوعي. وقد تأثر كثير من الفلاسفة بفكرة الديمومة لدى برجسون، وإن اختلف هذا الأثر وفقا للمنظور الفلسفي لكل فيلسوف. فعندما هيمن التفكير البنيوي على الساحة الفكرية في أوروبا، وبالتحديد في فرنسا، على إثر انتشار النظرة البنيوية لفرديناند دو سوسور في علوم اللغة وتأثيرها البالغ في مناهج العلوم الإنسانية من علم اجتماع، وعلم النفس إلى الأنثروبولوجيا والفلسفة ، أولى الفلاسفة أهمية قصوى لفكرة الخطاب بوصفه الدال المادي للفكر الذي يمكن من خلاله دراسة المشكلات الفلسفية، بالإضافة إلى فكرة الأنساق الرمزية التي تتحكم في الإنتاج الفكري . يضاف إلى ما تقدم أن دراسة الفكر الفلسفي خلال النصف الثاني من القرن العشرين وما يليه قد كشفت عن تحول كبير في مفهوم الفلسفة. فبعد أن كانت الفلسفة تعنى بالمذاهب الفلسفية الكبرى التي تسعى إلى دراسة الوجود دراسة شمولية، وتشييد مذاهب كلية تحيط بكل جوانبه، وبكل ما يتفرع عنه من مسائل فلسفية متنوعة متصلة بفروع علمية متعددة تحت الفلسفة بدءًا من القرن العشرين وتحت أثر التطور العلمي الهائل، وبزوغ تخصصات علمية دقيقة متنوعة نحت منحى مختلفا عما سبق. فقد انصب اهتمامها على إشكاليات متخصصة أفرزها التقدم العلمي الهائل، والتطور الكبير في المعرفة العلمية بكافة فروعها، بحيث صارت الفلسفة وثيقة الارتباط بالمعرفة العلمية وخادمة له بدرجة غير مسبوقة، فقد أولت اهتماما عظيما بالمعرفة العلمية سواء تعلق الأمر بالعلوم الطبيعية أم بالعلوم الإنسانية. وإذا كانت هناك في القرن العشرين فلسفات كبرى اتسمت ببعض الشمول مثل الفلسفة الوجودية، والفلسفة الماركسية، والفلسفة البراجماتية، فهي لم تكن منفصلة عن جذورها الفكرية الأولى في القرن التاسع عشر وإن كانت قد قطعت أشواطا كبيرة في تطورها الفكري وفقا لمتغيرات العصر.

ومع ميشيل فوكو يحار الباحثون حيرة كبيرة في عملية التكييف الفلسفي لجملة أعماله؛ إذ نحن أمام فكر متقطع ومحير يتعذر علينا أن نصنفه بالمعايير ذاتها التى كنا نستخدمها في الحكم على الفلسفات السابقة. بل نكاد لا نعثر أمامنا إلا على دراسات له تشكل محاولات فلسفية معمقة ومتباينة في إشكاليات معرفية متنوعة وغير مألوفة لم نعتد الولوج إليها من قبل. ولكي نلقي الضوء على الملامح العامة للفكر الفلسفي لفوكو، وبخاصة فيما يتعلق بموضوع بحثنا هذا يتعين علينا أولا أن نعرض للمفاهيم الأساسية التي يرتكز عليها فكره الفلسفي، وهي المفاهيم التى عرضها في مؤلفاته المتعددة، وفي لقاءاته التى نشرت بعد

وفاته في عدة أجواء، ثم نعرج بعد ذلك على المشكلة الخاصة بفكرة **التحقيب المعرفي** الذي سيحل محل **التقسيم الزمني المعتاد للعصور** على مر التاريخ، وسيعتمد على معيار ابيستمولوجي (معرفي) جديد وفقا لمنهجية التفكير الخاصة المتغيرة لكل حقبة.

أولا: المفاهيم الأساسية للفكر الفلسفي عند ميشيل فوكو

يمكن القول إن الفكر الفلسفي لفوكو قد تأثر بمفكرين فرنسيين: **جاستون باشلار وجورج كانجيلم**. وسنعرض في عجالة كيفية حدوث هذا التأثر، وانعكاسه على فلسفة فوكو بالمعنى الواسع لكلمة فلسفة.

١. جاستون باشلار:

يعد جاستون باشلار أحد أهم الفلاسفة الفرنسيين في القرن العشرين، ورغم أن فلاسفة آخرين كانوا أشهر منه مثل جان بول سارتر مثلا، إلا أن باشلار كان له التأثير الأكبر في الفكر العقلاني. وقد عاش في بداية القرن العشرين الثورة العلمية الهائلة التى أحدثتها نظرية النسبية لأينشتاين، والتي أدت إلى تغير النظرة إلى العالم والمعرفة العلمية. وقد كان باشلار في بداية حياته موظف بريد، ثم نال بعد ذلك أعلى الشهادات العلمية في الفيزياء والفلسفة حتى وصل إلى أعلى المراتب العلمية في جامعة السوربون. ولم تقتصر كتاباته على الأبحاث الفلسفية، وإنما كانت له حساسية الشاعر الفنان، وله أعمال كبيرة في الشعر والأدب والنقد. وقد دفعته الثورة العلمية للنسبية إلى الاهتمام الشديد بالمعرفة العلمية، وبالتحديد بالابستمولوجيا. وكتب أول مقالة له في هذا الصدد عام ١٩٢٨ وعنوانها " **مقالة في المعرفة التقريبية**"[١] ويقول فيها إن المعرفة العلمية معرفة تقريبية لا يقين فيها وهي تخضع دائما للتعديل على مر الزمن، وهذا هو سر التطور العلمي. فلا معرفة علمية مطلقة وهاجم بضراوة كل الدوجماطيقيات التى تحجرت في الفكر المطلق. وفي كتابه الشهير " **الروح العلمية الجديدة**"[٢] الصادر عام ١٩٣٤ أرسى **أول مبدأ ابستمولوجي** استخلصه من دراساته للفيزياء، وبالتحديد لنظرية اينشتاين والفلسفة ومفاده: **نسبية المعرفة العلمية.**

وفي ذات المؤلف أرسى باشلار مبدأً ثانيا سيكون له التأثير الأعظم في فكر فوكو بل وفي الفكر الابستمولوجي برمته وهو **مبدأ** " **القطيعة الابستمولوجية**".

---

(١) أنظر جاستون باشلار، "مقال حول المعرفة التقريبية" الصادر عن دار فران في باريس بفرنسا عام ١٩٦٩
Bachelard, G., *Essai sur la connaissance approchée*, J. Vrin, Paris 1969

(٢) أنظر جاستون باشلار . "تكون الروح العلمية" الصادر عن دار فران في باريس، عام ١٩٩٣
Bachelard, G., *La formation de l'esprit scientifique*, J.Vrin, Paris 1993

ويعنى هذا المبدأ أن تاريخ العلم يعرف الاستمرارية حتى يأتي حين من الزمن تقع فيه ثورة أو أزمة تحدث قطيعة كبرى في المعرفة. ولكي نوضح ذلك نتأمل عباراته في كتابه الشهير " تشكل الروح العلمية":

" **حينما نبحث الشروط النفسية لتقدم العلوم، نصل إلى قناعة بأننا ينبغي أن نطرح مشكلة المعرفة العلمية بوصفها مجموعة عقبات. ولا يقصد بذلك ما قد يكون هناك من عقبات خارجية وما قد يكتنفها من تعقد أو سمات عابرة، كما لا يقصد بالعقبات هنا اتهام الحواس والعقل الإنساني بالإعياء والعجز. لكن المقصود هنا ما يكون كامنا داخل فعل المعرفة بشكل ذاتي، حيث تتجلى فيه بحكم الضرورة الوظيفية إمارات البطء والاضطراب. هنا فقط يتعين علينا بيان أسباب الركود والتراجع، والكشف عن أسباب الخمول التى تفرض نفسها في صورة "عقبات ابيستمولوجية". إن معرفة الواقع هي بمثابة شعاع ضوئي يترك ظلالا في مكان ما . وهذا الضوء ليس مباشرا وساطعا. فالكشف عن الواقع يأخذ مرارا طابعا متكررا، والواقع ليس أبدا ما يمكن أن نعتقده بشأنه. فهو دائما ما كان ينبغي أن نفكر فيه. الفكر التجريبي يكون في النهاية واضحا بعد أن نضبط جهاز البحث عن الأسباب في عقولنا، وحينما نتراجع عن ماضٍ ملئ بأخطاء وقعنا فيها حتى نجد الحقيقة ونحن في حالة توبة فكرية**".

و تتحقق القطيعة الابستمولوجية حينما نتوب عن أخطائنا العلمية والفكرية، فنضطر إلى القطيعة مع الماضي، ومع تصوراتنا وأحكامنا السابقة، لكي نستطيع ضمان الاستمرارية، فالموت ضروري من أجل الحياة. ومعنى ذلك أن مفهوم العقبة الابستمولوجية يشير إلى تلك الأحكام السابقة التى عشنا عليها، وأصبحت حائلا أمام تقدمنا، ويلزم من وجودها القطيعة معها.

ويلاحظ هنا أن وجود العقبات الابستمولوجية هو الذي سيدفع العلماء والمفكرين إلى الحيرة والتخلي عن أحكام الماضي، بغية الكشف عن الحقيقة.

ويشير باشلار في كتابه " تكوين الروح العلمية[1] " أيضا إلى مبدأ ثالث هام هو **مبدأ ازدواجية المعرفة**، إذ يرى باشلار أن هناك نوعين من المعرفة: المعرفة العلمية والمعرفة الحسية المباشرة. فالمعرفة التى نتحصل عليها من حواسنا هي معرفة سطحية، أما المعرفة الحقيقية هي تلك التى نتوصل إليها بعد أن ندير ظهورنا تماما لكل معارفنا الحسية، وأحكامنا المسبقة التى اكتسبناها منذ طفولتنا ثم ندخل معاملنا لنخضع الأشياء للفحص العلمي

(١) المصدر السابق، ص ٣٨

الدقيق، ونقوم بتشريحها لنصل إلى حقائقها. وكان باشلار يردد في مؤلفاته حقيقة هامة عندما يقول:" **إن العقيدة التى تعتقد بوجود عقل مطلق وثابت هي عقيدة بائدة، فالعقل يتغير بتغير العصور وبتغير العلوم، وبخاصة العلوم الفيزيائية والتجريبية**"

٢. جورج كانجيلم:

هو طبيب وفيلسوف فرنسي وكان تلميذا لباشلار، وأستاذا جامعيا أشرف على رسالة الدكتوراه لميشيل فوكو وقد تأثر فوكو، بشدة بكانجيلم وبخاصة بفكرته عن "**المعيارية**" التى كرَّس لها كانجيلم كتابه المعروف باسم " **العادي والمرضي**"(١). كما تأثر فوكو أيضا بمنهج كانجيلم الذي كان يهدف إلى البحث عن أشكال الاتساق المعرفي الخاصة بكل عصر، إذ لم يكن جورج كانجيلم يؤمن بفكرة التطور المستمر للعلوم في اتجاه واحد والعقل. فمعيار التقدم يختلف وفقا لكل عصر. فإذا كان التقدم التكنولوجي يقاس مثلا بالتطور في اختراع الآلات، وحلول آلات حديثة محل القديمة، فإن هذا التقدم قد يجلب النقمة على علوم البيئة مثلا وعلى علم الاقتصاد، إذا اقترن التطور التكنولوجي مثلا بانتشار البطالة والفقر والعوز. ومن ثم يتفاوت مفهوم المعيارية بشكل يجعل من الصعب تحديد معنى ثابت له. وفكرة "المعيارية" عند كانجيلم جاءت من دراسته لعلم البيولوجيا. حيث كان يرى أن الجسم المريض ليس في حالة غير عادية كما نتصور. فمعيار الحالة العادية لا يجوز البحث عنه في ما نطلق عليه الجسم السليم المعافي. لأن الإنسان حينما يصاب بمرض أو بأي عرض – ارتفاع السكر في الدم مثلا – يقوم تلقائيا بردود أفعال داخلية من شأنها الاحتفاظ بحالة التوازن التي تضمن استمرارية الحياة وهذه الحالة تعد حالة عادية بالنظر إلى التفاعل مع العامل المرضي الذي داهم الانسان. فالجسم يتغلب على العامل المرضي برد فعل معين يمكنه من الاحتفاظ بالحياة، والتغلب على العامل المرضي. فمعيار الحالة العادية يتحقق أيضا عند قيام جسم الإنسان بردود أفعال معينة ضد ما يصيبه من مرض، وبذلك يستعيد توازنه عند تصديه لهذا المرض باستراتيجيات متباينة تضمن حفظ توازنه وبقاءه حيا. ومعنى ذلك فإن البحث عن مفهوم ثابت للمعيارية أمر محفوف بالمخاطر، ويرتبط ارتباطا وثيقا بعلم المعرفة أو الابيستمولوجيا، حيث تختلف المعايير وفقا لنظام الفكر السائد، ومن ثم يتعين اقتحام ذلك الحقل المعرفي الذي تتعدد فيه أنظمة الفكر، وتتحدد في إطارها مفاهيم التقدم.

---

(١) انظر جورج كانجيليم: "العادي والمرضي" الصادر عن دار المطبوعات الجامعية في باريس في طبعته الثانية عشر.

Canguilhem, G., *Le normal et le pathologique*, PUF, Paris 2013

ثانيا: النظام المعرفي أو نظام الفكر (الابيستيميه") وفكرة التحقيب المعرفي:

كلمة "ابيستميه" استخدمها ميشيل فوكو أول ما استخدمها في لقاء جمعه بالمفكر الأمريكي ناعوم شومسكي عام ١٩٧١ وقام بتعريفها قائلا:

" **الابيستيمه هي فهم تحولات المعرفة داخل المجال العام للعلوم، وأيضا داخل المجال الرأسي الذي يشكله المجتمع والثقافة والحضارة في فترة ما**"، وقد قصد فوكو بذلك فهم طريقة التفكير والخطاب و تمثل العالم بما يشمله ذلك من أوجه الثقافة الخاصة بكل عصر. بيد أن فوكو سيتراجع قليلا عن هذا التعريف فيما بعد.

فحينما تناول مفهوم الابيستيمية في كتابه " **الكلمات والأشياء**"[١] يقول:

" **لا يتعلق الأمر هنا بوصف معارف العلوم وتقدمها نحو الموضوعية التي يمكن لكل علم أن يدعي تحليه بها، وإنما المراد بها إلقاء الضوء على المجال المعرفي، فالابيستيميه تصف لنا شروط إنتاج المعارف. فبدلا من تتبع التاريخ بالمعنى التقليدي للكلمة نقوم بعملية حفر أركيولوجي في المعرفة. وقد كشف التحقيق الأركيولوجي عن حدوث قطيعتين في الثقافة الغربية. قطيعة سبقت تدشين العصر الكلاسيكي في نصف القرن السابع عشر تقريبا، وقطيعة أخرى حدثت على أعتاب القرن التاسع عشر، وهي التى تمخضت عنها الحداثة في عصرنا.**"

ثم يقول ميشيل فوكو بعد ذلك معقبا على تعريفه السابق للابيستيمه أثناء مقابلة معه عام ١٩٧٢ " **ما قصدته في كتابي "الكلمات والأشياء " بكلمة الإبيستيمه لا علاقة له بالتقسيمات التاريخية وإنما هي تشير إلى مجموع العلاقات الكائنة في عصر ما بين مختلف مجالات العلوم، إنها كل مظاهر العلاقة بين العلوم أو بين مختلف أنواع الخطاب في مختلف المجالات العلمية التي تشكل ما يمكن تسميته "إبتستميه" كل عصر**"، ثم يعيد فوكو الكَرّة حينما يحاول إيضاح وتعريف الإبيستيمه، فيقول في موضع لاحق: "**الإبيستميه هي وسيلة استراتيجية تسمح لنا بإجراء فرز للعبارات المستخدمة لتحديد العبارات التي يمكن قبولها داخل حقل علمي ما، ويمكن أن نحكم عليها قائلين: هذه عبارة حقيقية أو زائفة"، فهذه الوسيلة تسمح لنا أن نفصل ، لن أقول الحقيقي عن الزائف، ولكن فصل ما لا يمكن وصفه بشكل علمي عما يمكن ويصح وصفه كذلك**"[٢]

---

(١) انظر ميشيل فوكو:"الكلمات والأشياء" الصادر عن دار جاليمار في باريس

Michel Foucault, *Les mots et les choses*, Gallimard, Paris 1966, p.219

٦.انظر لقاءات ميشيل فوكو على الرابطين الآتيين:

إن نظام الفكر (الإبيستميه) من شأنه أن يبرهن ويشرح لنا الكيفية التى يتسنى بها للمعيار المعرفي الضمني أن ينتج آثاره داخل الفكر العلمي لعصر ما.

والحق أن نظام الفكر لدى فوكو يجمع في ثناياه بين عدة تيارات فكرية. ذلك لأن التدليل على نظام الفكر لعصر ما هو بمثابة تقصي عميق عن شبكة معقدة من العلاقات باستخدام أدوات فنية عالية وبطيئة تستلزم امتلاك ثقافة واسعة وانتباه شديد.

والحق أن فوكو لم يكن في كتاباته بالوضوح الكافي الذي يسمح لشارحيه بتحديد منهجيته بدرجة قاطعه لكنه رغم ذلك فتح الباب لاجتهادات وتأويلات عديدة أثرت إلى حد كبير في الفكر الإبستيمولوجي. ومع ذلك يمكننا أن نلحظ أن مفهوم نظام الفكر او الابيستيميه عند فوكو يرتكز عمليا على رؤيتين أو نظريتين أساسيتين أثرا تأثيرا كبيرا في الفكر الأوروبي في مختلف فروع المعرفة: النظرية البنيوية والرؤية الكلية المعرفية.

١. النظرية البنيوية:

يدافع فوكو عن فكرة هامة مستمدة من الفكر البنيوي مفادها **أن ثمة نظامًا مباطنًا للمعرفة هو المسئول عن عملية إنتاج المعارف**. وهذا النظام يشكل في الواقع بنية تحكم وتنظم مختلف المعارف. ويعبر عن نفسه في شكل أكواد، أو قوانين أساسية للثقافة التى يشارك فيها أفراد مجتمع ما، ومن ضمنها قوانين اللغة، وتصوراتها المحسوسة، ومستويات استخدامها. وهذه القوانين هي التي تحدد الموضوعات التى يستطيع الولوج إليها كل من يشترك في هذه الثقافة. هذه البنية تشكل شبكة غير محسوسة من الإكراهات والقيود. القواعد والبنى لا يعرفها العلماء المختصون في فروع العلوم المختلفة، لأنها تعمل في اللاوعي وليست ظاهرة.

يرى فوكو أننا حينما نفكر إنما نفكر داخل إطار فكرى مجهول يفرض علينا ضربا من الإكراه والقيود، كما أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالعصر الذي نعيش فيه وباللغة السائدة. هذا الإطار الفكري، وهذه اللغة لهما قوانينهما التى تحدد طريقة التفكير وتتحكم في تغييرها. ومهمة الفيلسوف هو إلقاء الضوء على هذا الإطار الفكري القبلي الذي يفكر الإنسان في مجرته.

وقد حمل المفهوم البنيوي لنظام الفكر أو الإبيستميه ميشيل فوكو على نقد الطريقة التقليدية التى نتصور بواسطتها تاريخ الأفكار، إذ تخلى عن النظرة إلى التاريخ بوصفه مسارا زمنيا مقسما إلى عصور زمنية محددة، ليتبنى رؤية للتاريخ تقسمه إلى عصور معرفية

---

https://www.youtube.com/watch?v=hem1er1VJUQ&t=20s
https://www.youtube.com/watch?v=6hBU7ZhuDqQ

منفصلة ومقطعة، بمعنى أنها مختلفة فيما بينها في البنية المعرفية لكل منها، اختلافا لا اتصال بينها فيه. فلكل عصر نظام فكر ثابت خاص به، أو بنية يسميها فوكو "الابيستميه".

٢. نظرية المعرفة عن ميشيل فوكو:

ما هي نظرية فوكو في المعرفة ؟ وما منهجه في المعرفة؟

يتميز منهج فوكو عن منهج الفلاسفة الذين سبقوه في فكرة محورية لها دلالاتها الفلسفية العميقة. فلو نظرنا مثلا إلى منهج من سبقه من الفلاسفة، مثل هيجل مثلا في كتابيه "العقل في التاريخ" و "دروس في تاريخ الفلسفة"، وأوجست كونت في كتابه " دروس في الفلسفة الوضعية" الذي نشر فيما بين عامي ١٨٣٠ حتى عام ١٨٤٢، وماركس في دراسته حول دور العقل في التاريخ والتي حواها كتابه "بيان الحزب الشيوعي" عام ١٨٤٨، سنجد أن الفكرة المحورية التي تدور حولها المؤلفات الثلاثة تقول إن العقل يتقدم بصورة مستمرة، وإن عصور التاريخ الإنساني تتابع بصورة منطقية وفقا لتقدم العقل. لكن فلسفة فوكو ستأخذ مسارا مختلفا تماما عن الرؤية التقليدية. فهو في نظريته للمعرفة لن يلتفت كثيرا إلى فكرة "الاستمرارية" في التاريخ وإنما ستركز جل اهتمامه وتفكيره على نقيض الاستمرارية، أي فكرة "الانقطاع" أي الانقطاعات الطارئة في أشكال الخطاب الإنساني على مر التاريخ، وهنا يثار التساؤل: وما المقصود بأشكال الخطاب ؟ يشير الخطاب هنا إلى خطاب النظريات العلمية والكتابات الأدبية بما تتضمنه من خيال أدبي. ونلاحظ هنا أن فوكو يستخدم عبارة "أشكال الخطاب" بمعناها الواسع. وما الذي يهدف إليه فوكو من دراسة أشكال الخطاب؟ ترمي دراسة فوكو لأشكال الخطاب إلى كشف النقاب عن بنى الخطاب المسئولة عن توليد معناه استنادا إلى النظرية البنيوية التى ترى أن دلالات ومعان أي خطاب هي نتاج للعلاقات الكائنة بين عناصره. فلو تصورنا الخطاب أشبه بآلة مكونة من العناصر ا و ب و ج. فإن قيمة العنصر ا ستتحدد وفقا لعلاقاته مع كل من العنصرين الآخرين: ب و ج، إذ هي ترتبط بكونه مختلفا عنهما، وبأهميته بالنسبة إلى كل منهما والأمر نفسه بالنسبة لكل عنصر على حدة في علاقاته مع الآخريْن. وسيطلق فوكو على بنى الخطاب المسئولة عن تشكيل معانيه والتى تعد تجسيدا حيا للمعرفة كلمة "إبيستميه"[1] وهي كلمة يونانية معناها "المعرفة". ومن ثم سينكب فوكو على دراسة شبكات العلاقات الكائنة بين مختلف أشكال الخطاب سواء كان خطابا علميا أو أدبيا. أي أن كلمة "الإبيستيميه" تشير عند فوكو إلى مجموعة الشروط التاريخية التى أدت إلى إمكان ظهور وتشكل الخطاب. ويلاحظ هنا أن فوكو حينما يدرس الظواهر المعرفية في الخطاب لا يستعين في تفسيرها و تحليلها بعلاقة

(1) Epistémé.

السببية، وإنما يستعين بعلاقة المشروطية أي أنه يبحث عن الشروط التى أدت إلى تولد الظاهرة، ويطلق على هذا المنهج المنهج الجينيالوجي أي المنهج الذي يحفر في الطبقات العميقة لأشكال الخطاب المعرفي بحثا عن الشروط التى أدت إلى ظهور الخطاب بالشكل والمعنى الذي تجلى بهما، وهذا المنهج استعاره ميشيل فوكو من نيتشه.

ووفقا لهذا المنهج الجينيالوجي **سيتمكن فوكو من تعريف كل عصر ثقافي معرفي بواسطة بنية الخطاب المباطنة لطريقة تفكيره، والتى ستظهر في مجموعة الإشكاليات والفروض التى تشغله، ومناهج البحث التى يستخدمها، كما ستظل ثابتة في بنية خطاب الخاص بهذا العصر**. ولكي يضرب فوكو مثالا توضيحيا لما يقول يشير إلى الفترة التى تمتد من عصر النهضة حتى العصر الكلاسيكي. حيث كان البحث في عصر النهضة منصبا على مفهوم "**التشابه**" بين الأشياء، حيث صار هذا المفهوم هو الحاكم المتحكم في الفكر، حتى جاء العصر الكلاسيكي ليتغير المفهوم إلى مفهوم آخر، وهكذا يتغير نظام الفكر من عصر إلى آخر، كما سنرى في موضوع التحقيب المعرفي.

ويذهب فوكو إلى أبعد من ذلك حينما ينفي حدوث أي تقدم في المسار الثقافي على مر التاريخ، معللا ذلك بأن التغيرات التى تحدث هي نتاج المرور من نظام فكر ما إلى نظام فكر آخر. وهذا الانتقال بين أنظمة الفكر ليس مردها تطور أو تحسن المعارف، ولكنها تعتمد على أحداث ثقافية غير قابلة للتحديد، وعلى قطائع غامضة في الفكر والمعرفة[1]. . وهذا التحليل لا علاقة له بتاريخ الأفكار أو بتاريخ العلوم، وإنما هو دراسة تجتهد في العثور على الأشياء التى تمكنت من خلالها المعارف والنظريات من أن تصير ممكنة. أي أن فوكو يبحث عن شروط الإمكان (إمكان إنتاج المعارف)، عن الإطار والنموذج الثقافي الذي لا يمكن التفكير فيه ويعد مسئولا عن تخليق هذه الشروط. ففي رأيه أن الإبيستميه أو نظام الفكر هو الذي يحدد أشكال الفكر والمعرفة الممكنة لكل عصر. وفي ذلك يقول:

" **الأمر الذي أركز عليه يكمن في هذه القطيعة الكائنة بين التاريخ الاجتماعي وتاريخ الأفكار**". **وينبغي السعي نحو فهم كل شئ، ففي كل ثقافة وفي عصر ما ليس هناك سوى نظام فكر واحد هو الذي يحدد شروط إمكان كل معرفة**"

---

٨ وقد حدت فكرة القطيعة أو الانقطاع الأثيرة عند فوكو بالمتخصصين في فلسفته مثل "جوديت ريفيل" إلى التساؤل عما إذا كانت فلسفة فوكو تعد في ذاتها ضربًا من القطيعة في الفكر الفلسفي، أم أنها في ذاتها فلسفة لإشكالية القطيعة؟ انظر كتابها " فوكو وفكر الانقطاع"

(1) Judith Revel, *Foucault, une pensée du discontinu*, Millee et Une Nuits, Paris 2010

وانطلاقا من هذا التحليل يضع فوكو تحقيبه المعرفي للعصور فيميز بين ثلاثة أنظمة فكرية في الغرب:

أ- **النظام الفكري لعصر النهضة.**

ب- **النظام الفكري للعصر الكلاسيكي.**

ج- **النظام الفكري للعصر الحديث.**

فهو في كتابه " **تاريخ الجنون**"[1] الذي يسبق في نشره كتاب "الكلمات والأشياء" يؤكد على وجود **قطيعتين معرفيتين تفصل بين ثلاثة عصور:**

الأولي تفصل بين عصر النهضة والعصر الكلاسيكي، أما الثانية فهي تفصل بين العصر الكلاسيكي والعصر الحديث.

في عصر النهضة يهيمن نظام فكري يتسم برؤية كونية للعالم يكون كل شئ في داخلها منتظما في نسق واحد مع الأشياء الأخرى، ويبرز بوضوح في هذا الفكر البحث عن التشابه والمحاكاة، وفي كل كتاب للطبيعة نجد كل جزئية تتجه إلى الاندماج في نظام واحد.

وفي النظام الفكري للعصر الكلاسيكي تهيمن معا عناصر ثلاثة: **النظام والهوية والاختلاف**، بحيث تشكل ثلاثتها تصورا للعالم شارك في تحديد رموزه ودلالاته كل من مدرسة بورويال، وديكارت، وهوبز، وليبنيتز.

كما نجد في هذا النظام الفكري أن التصور الرياضي والتصور الآلي للطبيعة قد ساهما إلى حد كبير في تحديد نظام العلامات والرموز في اللغة الذي من خلاله تحددت ملامح التصور العام للعالم.

ومع كانط يبدأ العصر الحديث. وفي داخل نظام الفكر المهيمن على هذا العصر نجد أن الحياة والعمل واللغة قد صاروا موضوعات أساسية للدراسة، ونلحظ بوضوح انتقالا من الاهتمام بالتاريخ الطبيعي إلى الاهتمام بالبيولوجيا، ومن الاهتمام بالثروات إلى الاهتمام بالاقتصاد ومن الاهتمام بعلم الفيلولوجيا وقواعد النحو إلى الاهتمام باللغويات . وقد تشكلت في هذا النظام موضوعات جديدة للمعرفة: فالإنتاج حل محل التبادل أو المقايضة في الاقتصاد، وحلت إشكالية الحياة محل الاهتمام بالكائنات الحية بالنسبة للبيولوجيا، وحلت إشكالية اللغة محل الخطاب بالنسبة للفيلولوجيا، وصار الإنسان من خلال العلوم الإنسانية التي تشكل جزءًا لا يتجزأ من النظام الفكري موضوعا جوهريا للدراسة التجريبية وللمعرفة. وكل هذه العلوم تغيرت في طبيعتها وشكلها بصورة تؤكد وجود قطيعة معرفية بين وضعها

---

(١) انظر لفوكو كتاب " تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"

M.Foucault, *Histoire de la Folie à l'Age Classique*, Gallimard, Paris 1961.

في النظام الفكري الحديث ووضعها فيما سبق. وأهم شئ في هذا النظام الفكري للعصر الحديث أن الإنسان قد تحول إلى موضوع للدراسة مما شكل تحديا معرفيا جديدا هاما، إذ اتخذ الإنسان من الزاوية الانثربولوجية طابعا مزدوجا، فهو موضوع للدراسة المجهرية وهو في الوقت ذاته القائم بهذه الدراسة على نفسه، فصارت دراسته على ذاته ذات طابع مزدوج، فهي من ناحية دراسة وضعية، ومن ناحية أخرى دراسة فلسفية في الوقت ذاته.

٣. منهجية الحفر الأركيولوجي للمعرفة:

تخلى فوكو في نهاية الأمر عن تصوره لمفهومه السابق لنظام الفكر "الإبيستيميه"، واستبدل به مفهوما جديدا. فلم يعد نظام الفكر مسارا للفكر، ولكن حفرا أركيولوجيا شبيها بالحفر المرتبط بالبحث عن الآثار، حفرا يسعى العقل الفلسفي فيه إلى البحث والتقصي داخل الركام المعرفي في أرشيف الفكر. ففي مقابلة له مع الفيلسوف الهولندي "فون إلدرز" في بداية السبعينيات يشرح فوكو منهجه الأركيولوجي بأنه المنهج الذي يجري بواسطته مقارنة بين مجالات المعرفة المختلفة من بيولوجيا إلى اقتصاد إلى علوم اللغة في الفترة ما بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر، والذي بواسطته يمكن تبيان كيف تخضع هذه المجالات المعرفية المختلفة لقوانين وقواعد عامة لها، قواعد تجعلها متصلة ببعضها البعض. ويشدد فوكو على الاختلاف الشديد بين هذه المنهجية الأركيولوجية وبين ما اصطلح على تسميته بتاريخ الأفكار، وكلمة "أركيولوجية" كفيلة في رأيه بإيضاح هذا الفارق الجوهري.

ومعنى ذلك أن أركيولوجيا المعرفة عند فوكو تقوم بوصف الأحداث الثقافية حسب ما لديها من إمكانات. فالأركيولوجيا تبين لنا كيف تتبدل التصورات والتمثلات الداخلية لكل معرفة، وتحلل لنا التغيرات الحادثة في الموضوعات التجريبية للمعرفة و أوضاعها، كما تدرس أيضا العلاقة بينها لتحدد لنا المبادئ التي تتحكم في هذا الفضاء المعرفي العام. إن الأركيولوجيا كما يقول فوكو هي " **الفكر المتماسك الذي يتوغل باحثا ومتقصيا في جذور تاريخه**"

وفي كتابه الشهير "أركيولوجيا"[1] المعرفة يميز فوكو بين ضربين من موضوعات البحث الأركيولوجي: الخطاب وتشكلاته اللغوية وعباراته وبين الأرشيف. فالعبارات المنتظمة و المستخدمة في الخطاب تقدم لنا تصورا محددا للتجانس. ونلحظ هناك " نظاما عاما للتشكلات الخطابية وتحولاتها"، ودور الأركيولوجيا هنا هو إخراج وإبراز نظام التحولات الذي

(1) Michel Foucault, *L'Archéologie du Savoir*, Gallimard, Paris 1969.

يعد بمثابة الشرط الجوهري لإمكانية التعبير بالخطاب، بالإضافة إلى شروط أخرى منطقية ونفسية ونحوية لا بد من أخذها في الاعتبار.

وفي مقابلة أخرى مع فوكو يؤكد على أن موضوع الأركيولوجيا ينصب على أشكال الخطاب، وكيفية أدائه لوظيفته، وصور ممارساته المختلفة. فممارسة الخطاب لها برأيه طابعها المستقل في التصور العام للفكر، وبالنظر إلى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسة فالأمر يتعلق بالتركيز على ما يقوم به البشر حينما يتكلمون".

وفي إبرازه للعلاقة بين نظام الفكر وممارسة الخطاب، يذهب فوكو إلى أن مجموعة العلاقات التى تجمع وتوحد في عصر ما الممارسات الخطابية التى من شأنها تخليق وإخراج الأشكال المعرفية، والعلوم المختلفة، وأيضا الأنظمة الصورية للفكر. ويسعى فوكو لتوضيح مفهوم الإبيستيميه أو نظام الفكر في ظل تركيزه على مسألة الخطاب كأرضية هامة للبحث الأركيولوجي، فيقول: إن نظام الفكر ليس شكلاً من أشكال المعرفة، أو نوعا من العقلانية يسري في ثنايا العلوم المختلفة، ويحاول إظهار وحدة ما تسود موضوعاتها، وتسود روحها العقلي في عصر ما، وإنما هو مجموعة من العلاقات التي يمكن اكتشافها في عصر ما بين العلوم حينما نحللها على مستوى النظام المتحكم في ممارساتها اللغوية الخطابية. ومعنى ذلك أن فوكو سيستعيض عن التحليل الفينومنولوجي لمعطيات التجربة الحسية المباشرة وللمعاني المحايثة للتجربة المعيشة على طريقة هوسرل بمنهج آخر يرتكز على تحليل نظام الخطاب، وقد سبق له أن أثنى على الفيلسوف الفرنسي "جان هيبوليت" وهو أحد شارحي هيجل، لأنه نأى بنفسه عن كل اتجاه فلسفي يسعى إلى التفكير في الأشكال والمظاهر الخارجية للحياة العادية كما تتجلى في العلم، والقانون، وفي الحياة اليومية، وحصر مهمته الفلسفية في التعبير عن الوجود عبر تجلياته في الخطاب(١). ففي أحد لقاءاته يقول فوكو:"بدلا من الانكفاء على ذاتي لتحليلها وتحليل تجربتي المعيشة، ألقيت بنفسي كلها في أتربة الأرشيف"، لا مراء في أن عبارات فوكو توقع المرء في حيرة شديدة، إذ كيف يمكن للفيلسوف أن يستخرج من مذهبه الفلسفي نتائج عملية ترتبط بالواقع إذا امتنع فكره الفلسفي عن النزول إلى أرض التجربة المعيشة للقاء الأشياء والالتحام بها، مفضلا عليها الغوص في ثنايا اللغة، والتجول في تخومها؟ ولئن كانت هذه التساؤلات المحيرة قد حدت بكثيرين من شارحي فوكو إلى إلحاق فكره الفلسفي بالمذاهب العدمية أو الشكية، فإن فوكو قد تمكن من

---

(١) انظر كتاب "فكر فوكو" لجيوم لوبون ص ١٨

Guillaume Le Bon, *La Pensée de Foucault*, Ellipse, Paris, p.18

خلال رؤيته الفلسفية من ابتكار تحليلات فلسفية عميقة لمفهوم السلطة، ودوره الجوهري في تحديد معاني الخطاب في كل عصر.

وإذا كان مفهوم الإبيستيميه عند فوكو قد تعرض للنقد، إلا أنه دشن طرقا وشعابا جديدة في الفكر الفلسفي، وبخاصة تلك المتعلقة بفكرة التقدم والتحقيب المعرفي للعصور.

ولئن كان فوكو قد استخدم في خطابة تعبير "روح الفكر في العصر" عند أراد أن يوضح الهدف من تحري النظام الفكري في ركام المعرفة، وهو تعبير تفوح منه رائحة المثالية، إلا أن استخدامه كلمة الروح العقلية هوفي الواقع استخدام مجازي لا علاقة له بالمذهب المثالي في الفلسفة. كما أن كلمة "عصر" لا ينبغي النظر إليها في معناها التاريخي المألوف بمعنى العصر التاريخي الزمني الذي يجمع في داخله الجوانب الاجتماعية والسياسية، وما تتضمنه من أنظمة سياسية مختلفة لكل عصر. فالعصور التاريخية بهذا المعنى لا تناظر بالضرورة تطورات الفكر في رأي فوكو. ذلك لأن نظام الفكر ليس لحظة تاريخية من لحظات الحضارة، وإن كان فوكو قد استخدم في خطابه ما قد يدعو إلى هذا الاعتقاد. الابيستيمه هو مفهوم أكثر اتساعا من مفهوم العصر التاريخي. إن بإمكاننا أن نعتبر مسار الحضارة كما يقول بعض شارحي فوكو بمثابة تغير في حساسية البشر، وفي السلوك الإنساني في مساره نحو حالة أكثر اعتدالا في الفكر، وفي السيطرة على الذات. فهناك تطورات اجتماعية تؤدي إلى خلق نوع متنامٍ من الاعتماد المتبادل بين البشر من شأنه تأسيس نظام خاص يفرض تحولا في الأخلاق والآداب، والثقافة.

ختام:

نخلص من عرضنا للفكر الفلسفي لفوكو فيما يتعلق بإشكالية الزمن والحدث أنه بالرغم من الغموض الشديد الذي يلف فكرة الإبيستيميه أو نظام الفكر، والذي قدم لها تعريفات متعددة متفاوتة كثيرا ما أوقعت شارحيه في حيرة كبيرة، الأمر الذي أدى إلى تعدد القراءات المختلفة لفكره، إلا أنه قد فتح مجالا جديدا في عملية التحقيب الفكري . وليس المقصود بذلك التقسيم إلى عصور زمنية، ولكن التقسيم وفقا لمفهوم الإبيستيميه لدى فوكو أي استنادا إلى المعرفة الإنسانية. فالحدث المعرفي لدى فوكو لا يقابل الحدث في الزمن، لأن فكره خلا تماما من البعد الزمني، وإنما هو يدل على تلك القطيعة التي تداهم نظام الفكر، وتعلن موته، لكي يحل محله نظام فكري جديد. ومن ثم يفتح الفكر الفلسفي لفوكو الباب لتساؤلات لا تجيب عنها فلسفته، وإنما هي تحفزنا إلى البحث عن إجابات لها في إطار التنقيب الفلسفي الدؤوب عن الحقيقة، وهي كلها تدور حول قضية هامة: ما العوامل التى تؤدي إلى موت نظام الفكر وحلول آخر جديد محله؟ أترينها عوامل داخلية في جسد هذا النظام الفكرى تكون بمثابة قوانين صارمة حاسمة في إشكالية المسار الحضاري شبيهة مع الاختلاف الكبير في المنظور الفلسفي بالرؤية الفلسفية للحضارة عند أوزفالد اشبنجلر؟ خاصة إذا ما رأينا تتابع الحضارات في مكان ما خاليا تماما من فكرة التقدم كما يقول فوكو. إن فلسفة فوكو تستمد قوتها من جرأتها في وضع قضية تبدو بديهية للكثيرين موضع الشك، وهي قضية التقدم. إذا كان تاريخ المعرفة مرتبطا بفكرة الانتقال من بنية معرفية "إبيستيميه" في الخطاب إلى بنية أخرى له تبعا لتوافر شروط معينة جعلت الخطاب في بنيته الجديدة ممكنا ، فما موقع التقدم الحضاري في القطائع المعرفية؟ وما دور الإرادة البشرية في تغيير المسار التاريخي؟ إن فلسفة فوكو على صعوبتها الشديدة تتسم بطابع الإثارة واستفزاز العقل حينما يجرده فوكو من القدرة على إخضاع الأحداث لقوانين العقل والمنطق، ويلحقه بقواعد الخطاب وتشكلاته، وتتحدد أهمية الحدث بقطيعته مع نظام فكري قائم، وتدشينه لنظام فكري جديد.

المراجع باللغة الفرنسية

Bachelard, G., *Essai sur la Connaissance Approchée*, J. Vrin Paris 1969
Bachelard, G., *La Formation de l'Esprit Scientifique*, J.Vrin, Paris 1993
Foucault , M., *Histoire de la folie à l'Age classique*, Gallimard, Paris 1961
Foucault, M., *Les Mots et les Choses*, Gallimard, Paris Paris 1966
Foucault M., *L'Archéologie du Savoir*, Gallimard, Paris Paris 1969
Canguilhem, G., *Le Normal et le Pathologique*, PUF, Paris 2013
Le Bon, G. , *La Pensée de Foucault*, Ellipse, Paris 2006
Revel, J., *Foucault, une Pensée du Discontinu*, Millee et Une Nuits, Paris 2010

مواقع اليكترونية

https://www.youtube.com/watch?v=hem1er1VJUQ&t=20s

https://www.youtube.com/watch?v=6hBU7ZhuDqQ